﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ دَرْءِ المفاسدِ ناسبَ الدُّعاءُ بجلْبِ المصالحِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة

لَمّا دعا إبراهيمُ ﷺ بدَرْءِ المفاسدِ النّاشئةِ مِن نوعَي الإنسانِ والشَّيطانِ بأمنِ البَلَدِ وإيمانِه، ذكرَ السَّببَ الحاملَ له على تخصيصِه بذلكَ، مُستجلِبًا للمصالحِ مع إعلامِه بأنَّه راغبٌ فيه، لقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، ولمّا نَفَى عنه الرِّفدَ الدُّنيويَّ أثبتَ له الأُخرويَّ، إشارةً إلى أنَّ الدّارَيْن ضَرَّتانِ لا تجتمعان، فقالَ: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ الَّذي حرَّمْتَ التَّعرُّضَ له، ومنعْتَه بالْهَيْبةِ فلا يَملِكُه أحدٌ سواك، وذلكَ ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ما أسكَنْتَهم في هذا الوادي؛ لأنَّ أوْلَى النّاس بإقامةِ الصَّلاةِ حاضِرو البيتِ المُتوجّهون بها إليه، واجعلْ يا ربِّ أفئدةَ النّاسِ مشتاقةً إليه، تقصدُه مُسرعةً نحوه. ولمّا دعا لهم بالدِّين، دَعا لهم بالرِّزقِ المُتضمِّن للدُّعاءِ لجيرانِهم، فقال: وارزقْهم على يدِ مَن يَهْوي إليهم منَ الثَّمراتِ الَّتي أنْبتَّها في بلادِهم؛ ليكونَ حالُهم حالَ مَن يُرْجَى شُكْرُهم لما يرَوْن مِن نِعَمِك في هذا المكانِ البعيدِ عنِ الفضلِ لولا عنايتُك، فيشتغلوا بعبادتِك؛ لإغْنائِكَ لهم وإحسانِك إليهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّتِي﴾: (ذرّ): الذّالُ والرّاءُ المشدَّدةُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على لطافةٍ وانْتشار، ومن ذلك: الذَّرُّ: صِغارُ النَّملِ، الواحدةُ ذَرَّة.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/428.

ومنه: الذُّرِّيَّةُ، قالَ تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: 124]. وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُه، والجمعُ: الذَّراريّ، والذُّرِّيّات[1]، وهو المُرادُ هنا في قولِه تعالى: ﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾[2].

2) ﴿بِوَادٍ﴾: وَدى يَدي وَدْيًا، وأوْدَى الرَّجُلُ: هَلَكَ، فهو مودٍ، والوادي: الموضعُ الَّذي يسيلُ فيه الماء، ومنه: سُمِّيَ المَفرَجُ بينَ الجبالِ والتِّلالِ والآكامِ واديًا، وجمعُه أوْدِية، نحو: نادٍ وأنْدِيةٌ، ويُستعارُ الوادي للطَّريقةِ، كالمذهبِ والأسلوب، فيُقال: فلانٌ في وادٍ غيرِ واديك، قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥﴾ [الشُّعراء: 225] فإنَّه يعني: أساليبَ الكلامِ منَ المدحِ والهجاءِ والجَدَلِ والغَزَل، وغيرِ ذلكَ منَ الأنواع[3]. وقالَ تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرَّعد: 17][4]. وقولُه هنا: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ هو وادي مكَّة[5].

3) ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾: (حرم): الحاءُ والرّاءُ والميمُ أصلٌ واحد، وهو المنعُ والتَّشديد. فالحرامُ ضِدُّ الحلال، قال تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ [الأنبياء: 95][6]. والحُرمةُ: ما لا يَحِلُّ انْتهاكُه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحجّ: 30]. وقولُه تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾؛ أي: المُحرَّم مِن اسْتحلالِ حُرُماتِ اللّهِ فيه، والاسْتخفافِ بحقِّه[7].

4) ﴿أَفْـِٔدَةً﴾: (فأد): الفاءُ والألفُ والدّالُ، أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارة، مِن ذلك: فَأدتُ اللَّحم: شَوَيتُه، ومن هذا الباب: الفُؤاد، سُمِّيَ بذلك لحرارتِه، والفَأْدُ: مصدرُ فَأدْتُه، إذا أصبتَ فؤادَه. والفؤادُ: كالقلب، يقالُ له فؤادٌ إذا اعتُبِرَ فيه معنَى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النَّجم: 11][8]. وقولُه تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً﴾؛ أيْ: قلوبًا مُتوقِّدةً بالشَّوق[9].

5) ﴿تَهْوِىٓ﴾: (هوي): الهاءُ والواوُ والياءُ: أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خُلوٍّ وسقوط، أصلُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (ذرّ).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(3) الفيروزابادي، البصائر: 5/192.
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (ودى).
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيروزابادي، القاموس المُحيط: (حرم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 13/233.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فأد).
(9) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.

الهواءُ بينَ الأرضِ والسَّماء، سُمِّيَ لخُلُوِّه[1]، ويُقالُ هَوَى الشَّيءُ يَهْوي: هويًّا إذا سقطَ مِن عُلْوٍ إلى سُفْل[2]. قالَ تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [الحجّ: 31]. وهوَى يَهوِي: يُريد، كما تقولُ: رأيتُ فلانًا يَهْوي نحوَك، معناه: ينحطُّ إليكَ وينحدرُ ويَنْزِل[3]. وقولُه هنا: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أيْ: تَحِنُّ وتُسرِعُ لزيارةِ بيتِك[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صِـدقُ التّـوكُّـل عـلى الـلـهِ مع صَلاحِ النِّيّةِ

هذا دعاءٌ ثانٍ بعد الدُّعاءِ الأوَّلِ الَّذي دَعا به إبراهيمُ ﷺ عندما ولَّى عن هاجرَ وولدِها، وذلك قبلَ بناءِ البيت، وهذا كانَ بعدَ بنائه تأكيدًا ورغبةً إلى اللهِ ﷻ، ولهذا قالَ: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾؛ أيْ: قالَ ﷺ مُتضرِّعًا مُتوكِّلًا على ربِّه: إنِّي أسكنْتُ بعضَ ذُرِّيَّتي - وهم إسماعيلُ وذرِّيتُه - في أرضِ مكَّةَ، وهي وادٍ ليس فيه ماءٌ ولا يَنْبُتُ فيه زَرعٌ، فاجْعلْهُم ربَّنا موحِّدينَ مُقيمينَ الصَّلاةَ، واجْعلْ قلوبًا منَ النّاسِ تُحبُّهم، وتُحبُّ الموضعَ الَّذي هم ساكنون فيه، وارْزُقْهم منَ الثَّمراتِ والأرزاقِ الَّتي تتوالَى إليه مِن كلِّ جانب، ما يجعلُهم شاكرين لك لِما أسْبغتَه عليهم من تلكَ النِّعم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ﴾، وسِرُّ افْتتاحِها بالنِّداء وتكرُّرِه:

تَكرارُ الدّعاءِ معَ التّضرّعِ مَظِنّةُ الإجابةِ

جملةُ: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ مُستأنفةٌ لابتداءِ دعاءٍ آخرَ، وافْتُتِحتْ بالنِّداءِ لزيادةِ التَّضرُّعِ، أمَلًا بإجابة دعائه ﷺ[6]، وكُرِّرَ النِّداءُ رغبةً في الإجابةِ، وإظهارًا للتَّذلُّلِ والالْتجاءِ إلى اللهِ تعالى[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هوي).
(2) الأزهريّ، تهذيبُ اللُّغة: 4/3813، والجوهريّ، الصّحاح: (هوى).
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/78.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/367، والخازن، لُباب التّأويل: 3/41.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/295، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 375 - 376.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/240.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/446.

بَلاغةُ حذفِ حرفِ النّداء: ﴿رَّبَّنَآ﴾:

الـرَّبُّ أقـربُ إلى نـفـوسِ عـبـادِه منهم

لم يُصَدَّرْ قولُه تعالى: ﴿رَّبَّنَآ﴾ بـ (يا) النِّداءِ قبلَه؛ للمبالغةِ في تصويرِ قُربِ المُنادَى، وهو المُربِّي والسّيِّدُ والمُدبِّرُ لأمورِ عباده، وهو بهذه المعاني وغيرِها مِن معاني الرُّبوبيَّة قريبٌ ﷻ، لا يحتاجُ في ندائه إلى وسائطَ.

سِرُّ العُدولِ إلى الجمْعِ: ﴿رَّبَّنَآ﴾:

الدُّعاءُ للعُمومِ بـقـصْـدِ تـحـقُّـقِ الإجابةِ

أُضيفَ (ربّ) في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ إلى ضميرِ الجمعِ خلافًا لسابقَيْه؛ لأنَّ الدُّعاءَ الَّذي افْتُتِحَ به، فيه حظٌّ للدّاعي ولأبنائه، ولعلَّ إسماعيلَ عليه السلام حاضرٌ معه حين الدُّعاء، كما يدُلُّ له ما تقدَّمَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ [البقرة: 127] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: 128][1]. وما أورده بقوله: ﴿رَّبَّنَآ﴾ هو بصدَدِ تمهيدِ مبادي إجابته، من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ متعلِّقٌ بذرِّيَّته، فالتَّعرُّضُ لوصْفِ ربوبيَّته تعالى لهم أدْخَلُ في القَبولِ وإجابةِ المسؤول[2].

دَلالةُ التّصديرِ بأداةِ التَّوكيدِ ﴿إِنِّيٓ﴾:

تـأكـيـدُ الـنّـداءِ ورَبْطُ المِثْلِ بمِثْلِه

صُدِّرتِ الجملةُ بأداةِ التَّوكيد ﴿إِنِّيٓ﴾ تأكيدًا لنداءٍ سابقٍ، وفي ذلكَ ضربٌ منَ الرَّبْطِ بينَ الجُمَلِ المُفتَتَحةِ بالنِّداء، وهو ربْطُ المِثْلِ بمِثْلِه[3].

إيثارُ لفْظِ ﴿أَسۡكَنتُ﴾ ماضيًا:

نِـعـمـتـا الأمـانِ والـسَّـكـيـنـةِ مُـتَـحـقِّـقـتـانِ بنِعمةِ السَّكَنِ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ السَّكَن؛ لأنَّ السَّكنَ نِعمةٌ منَ اللهِ تعالى، تدلُّ على نعمةِ الأمانِ الَّتي دَعا بها إبراهيمُ عليه السلام ربَّه، بقولِه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾، والسَّكَنُ بفعلِه ﴿أَسۡكَنتُ﴾ يدلُّ على تحقُّقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/240 - 241.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/268.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/240.

نعمةِ الإقامةِ الدّائمةِ في المكانِ الَّذي نزلَ فيه إبراهيمُ وزوجُه وابنُه، فكأنَّ إبراهيمَ ﷺ قالَ: (ربِّ أدِمْ عليهم السَّكَنَ في هذا المكانِ مع السَّكينةِ في قلوبِهم، والطُّمأنينةِ والأمْنِ في حياتِهم)[1].

السّكَنُ المُعدُّ هو من المُتاحِ في وقتِه

والتَّعبيرُ بلفظِ السّكَن، وإسنادُ الفعلِ إلى إبراهيمَ نفسِه ﷺ في قوله: ﴿أَسْكَنتُ﴾ يحتمل أنَّه أعَدَّ لهم سَكَنًا ممّا هو متاحٌ له في هذا المكان، كالبيوت الخفيفة المُتنقِّلةِ الّتي تخضع لظروف البوادي مِن مكان إلى آخرَ مثلِ الخيامِ، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النّحل: 80]، وهذا معنىً حقيقيٌّ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿أَسْكَنتُ﴾:

القَصْدُ كَرَمُ اللهِ بإنعامِه عليه وعلى ذُرّيّتِه

يحتملُ أنَّ إبراهيمَ ﷺ وضع زوجَه وابنَهُ في هذا المكان القَفْر، ومعهما شيءٌ منَ التّمْر والماء، وعَبَّر عن وضعِهما بالسُّكنَى على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ، والغرضُ منها: الرّجاءُ في كَرَم اللهِ به وبذُرِّيَّته بناءً على أمرِ اللّه له بذلك.

معنَى ﴿مِن﴾ ودَلالةُ دُخولِها على: ﴿ذُرِّيَّتِي﴾:

المُـــرادُ بعـضُ الذّرّيَّةِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ تُفيدُ التَّبعيضَ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [الأعراف: 50]، وذلك كَمَن يقول: قد أصَبْنا مِن بني فلان، وقَتَلْنا مِن بني فلان، وإن لم يَقُلْ: رجالًا؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ تؤدِّي عن بعضِ القوم، فيكونُ المُرادُ: بعضَ ذرِّيَّتي[2]؛ إذ كان ابنُه الآخرُ وهو إسحاقُ يعيش في موطن غيرِ هذا الموطن، فإسماعيل الّذي أسكنَه في هذا الوادي هو بعضُ ذُرّيّته،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/103.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/78.

لا كلُّ ذُرّيّته[1]. ويجوزُ أن يُقال: إنَّ ﴿مِن﴾ دخلتْ لتوكيدِ الكلام، والتَّقديرُ: (ربَّنا إنِّي أسكنْتُ ذُرِّيَّتي)[2]، وكون ﴿مِن﴾ للتَّبعيض أوْلى؛ لأنَّه إنَّما أسْكنَ إسماعيلَ، وهو بعضُ وَلَدِه[3].

إيثارُ لفْظِ الذّرِّيّة، وإضافتُه إلى المُتكلِّم:

كَـثرةُ نَسلِ إبراهيمَ عليه السلام ورغبتُه فيه

في لفظِ الذُّرِّيَّة إيحاءٌ إلى أنَّ نَسْلَ إبراهيمَ عليه السلام سيكثُرُ حتَّى يكونَ كالنُّجوم، وأكَّدَ ذلك بإضافته إلى ياء المتكلِّم؛ تنبيهًا على أنَّه لكونِه على وجهٍ لا يسمحُ به أحدٌ، لا يكادُ يُصدَّق، وللإعلام بأنَّه عليه السلام راغبٌ فيه[4].

سِرُّ إيثارِ الباءِ على (في): ﴿بِوَادٍ﴾:

ذُرّيّةُ إبراهيمَ عليه السلام مُنتمون للوادي

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِوَادٍ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيد؛ أيْ: أسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتي واديًا[5]، ويمكنُ أن تكونَ الباءُ بمعنَى (في)؛ أيْ: في وادٍ، لكنَّ السِّياق لم يأتِ بـ (في) مع أنَّها هي الَّتي تتبادرُ إلى الذِّهن، وأوردَ الباءَ الّتي تُفيد الإلصاق للدّلالةِ على استقرار ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السلام في هذا الوادي المبارك وانتمائِهم إليه؛ لكونِه مأنوسًا خصيبًا بنفحاتِ اللّه، محفوفًا برحمته ورضوانِه، مُشَرّفًا بأن يكون وِعاءً حاملًا لبيت اللّه تعالى[6].

إيثارُ الوادي دونَ غيرِه منَ المرادفاتِ:

الـوادي مَـكّـةُ، وهـي مُنخفضٌ بينَ الجبالِ

جاء لفظُ ﴿بِوَادٍ﴾ دونَ غيره؛ لأنَّ الواديَ هنا هو مَكَّةُ المُشرَّفةُ؛ لكونِها في فضاءٍ مُنخفِضٍ بين جبالٍ تجري بِهِ السُّيولُ[7].

نُكْتَةُ وَصْفِ الوادي: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾:

نـفـيُ المُسَبَّبِ لانتفاءِ السَّببِ

وَصْفُ الوادي في قولِه تعالى بأنّه: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ يعني أنَّه لا

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/192.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/487، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/366.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/426.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/223، والأخفش، معاني القرآن: 2/636.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/192.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3865، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/426.

يكونُ فيه شيءٌ مِن زرعٍ قطّ، كقولِه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزُّمر: 28]، بمعنى: لا يوجدُ فيه اعْوجاجٌ، ما فيه إلّا الاستقامةُ لا غير[1]. وهذه الصِّفة للوادي تدلُّ على أنَّه لا يصلُحُ للنَّبت؛ لأنَّه حِجارة، فإنَّ كلمة (ذو) تدلُّ على صاحبِ ما أُضيفت إليه، وتَمَكُّنِه منه، وإذا أُريد ضِدُّها قيل: غيرُ ذي كذا[2]. وانتفاءُ كونِه ذا زَرْعٍ مُستلزِمٌ لانْتفاءِ الماءِ الَّذي لا يمكنُ أن يوجدَ زرعٌ إلّا حيث وُجِدَ الماءُ، فنَفى ما يتسبَّبُ عنِ الماءِ وهو الزَّرعُ، لانْتفاءِ سببِه وهو الماءُ[3].

إنّ الله لا يُضيّع أولياءه

ويمكنُ أن يقتضيَ هذا الوصفُ: أنَّ إبراهيمَ ﷺ كان قد عَلِمَ منَ اللهِ أنَّه لا يُضيِّعُ هاجرَ وابْنَها في ذلك الوادي، وأنَّه يَرزقُهما الماءَ، وإنَّما نظرَ النَّظَرَ البعيدَ فقال: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، ولو لم يَعْلَم ذلكَ منَ اللهِ لقال: غيرَ ذي ماءٍ، على ما كانتْ عليه حالُ الوادي عند ذلك[4].

سِرُّ التَّقييدِ في: ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾:

البيتُ مُحرَّمٌ، وهو في وادٍ غيرِ ذي زرعٍ، مِن قَبْلِ بناءِ إبراهيمَ له

جاءَ القيدُ بقولِه تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ بعد قولِه: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾؛ لبيانِ أنَّ هذا البيتَ المُحرَّمَ كان قبلَ أن يَرفعَه إبراهيمُ ﷺ منَ الأرضِ حتَّى رفعَه أيامَ الطّوفان؛ لأنَّ إسكانَ إبراهيمَ إسماعيلَ ﷺ مكَّةَ كان قبلَ بنائهما البيتَ، وقد كانت كذلك غيرَ ذاتِ زَرْعٍ[5].

ويمكنُ أن يُرادَ أنَّ قولَه: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾؛ أيْ: الَّذي قد مضَى في سابقِ علمكَ أنَّه يحدُثُ في هذا الوادي على صفتِه الَّتي وردَ بها[6].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/446.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/341.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/488.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/233، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/366.

فائِدةُ إضافةِ ﴿بَيْتِكَ﴾ إلى الجليلِ:

عَظَمةُ البيتِ مِن عَظَمةِ اللهِ ﷻ

جاءتْ إضافةُ ﴿بَيْتِكَ﴾ إلى ضميرِ المَدْعوِّ ﷻ، في قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾، والتّعريفُ بالإضافة دونَ (ال)؛ لبيانِ أنَّ المقصودَ إظهارُ كونِ ذلك البيتِ والإسكانِ فيه مع فُقدانِ مباديه بالمرَّة، لِمحضِ التَّقرُّبِ إلى اللهِ تعالى، والالْتجاءِ إلى جوارِه الكريم، وإيذانًا بأنَّ عَظَمةَ هذا البيتِ مِن عَظَمةِ اللهِ ﷻ، الَّذي أمرَ إبراهيمَ وإسماعيلَ برفعِ قواعدِ البيتِ وبنائِه[1].

إيثارُ صيغةِ المفعولِ ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾:

البيتُ عتيقٌ في حُرمةِ التَّهاونِ به وإفْسادِه

جاءت صيغةُ المفعول ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾؛ لبيان أنَّه قد حُرِّم التَّعرُّضُ له والتَّهاونُ به، أو لم يزلْ مُعظَّمًا مُمَنَّعًا، يهابُه الجبابرةُ في كلِّ عصر، ولا تنالُه الأيدي بما يُفسِدُه أو يَضُرُّ أهلَه، أو مُنِعَ منه الطّوفانُ فلم يستولِ عليه، ولذلك سُمِّيَ عتيقًا، فعُنوانُ الحُرمةِ فيه قديمٌ، مع تَعدُّدِ بناءِ الكعبةِ المعظَّمة[2].

فإيثارُ صيغةِ اسم المفعول ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ على الصِّفة المشَبَّهة (الحرام) مناسبٌ لإضافة البيت إلى ضمير المخاطب ﴿بَيْتِكَ﴾؛ لأنّ المفعول مُشْعِرٌ بالفاعل؛ أي: الّذي حَرَّمَتَه، فكأنَّه استجداءُ عطاءٍ مِن خلال الدّعاء. وسُمّي بالبيت المُحَرَّم: لأنَّ اللهَ حرَّمه وعَظَّمه، وحَرَّم القتالَ والاصطيادَ عنده، ولا يختار أحدٌ مثلَ هذا المَوْضعِ إلّا للانقطاع للعبادة والتّبتُّلِ إلى اللهِ تعالى، والتَّبرُّكِ به[3].

سِرُّ توسُّطِ الدُّعاء بقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ﴾:

الاهتمامُ بمقدِّمةِ الدُّعاءِ، وتفريعُه لما بَعْدَه

توسَّطَ الدُّعاءُ بقولِه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ﴾ بينَ ما تَقدَّمه وبين ما أعْقبَه؛ للاهْتمامِ بمقدِّمةِ الدُّعاءِ بما فيه من زيادةِ الضَّراعة إلى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(3) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/86.

اللّه، وتَهْيئةِ الدّعاءِ لهم بأن يجعلَ أفئدةً منَ النّاسِ تَهوي إليهم؛ لأنَّ هِمَّةَ الصّالحين وشُغلَهم في إقامةِ الدِّين[1].

دَلالةُ اللّامِ في: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾:

عـلّـةُ الإسـكـانِ إقـامـةُ الـصّـلاةِ والعبادةِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ للتّعليل؛ أيْ: عِلَّةُ الإسكان بذلك الوادي عندَ ذلك البيت، أنْ لا يَشْغلَهم عن إقامةِ الصَّلاةِ في ذلك البيت شاغلٌ، فيكونَ البيتُ معمورًا بذِكرِ اللّه وعبادتِه أبدًا[2]. ففي قوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ إثباتٌ بأنّ الإقامة عنده عبادةٌ، وقد نفى كونَها للكسب؛ فجاء الحصرُ مع ما في ﴿رَّبَّنَآ﴾ منَ الإشارة إلى أنّ ذلك هو المقصودُ[3].

البلاغةُ في قولِه: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الـصّـلاةُ عـمـودُ الـدّيـن، وركـنُـه المتين

قولُه تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تخصيصٌ للصَّلاةِ مِن بين سائرِ شعائرِ الدِّين لفَضلها، ولإظْهارِ كمالِ العنايةِ بإقامةِ الصَّلاة، وأنَّها المقصدُ الأقْصى والمطلبُ الأسْنَى[4]، ولأنّها عمودُ الدّين.

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً﴾:

الـفـاءُ تـمـهـيـدٌ لإجابةِ الدُّعاءِ، بـجَـعْـلِ أفـئـدةِ نـــاسٍ تَـهـوي إليهم

في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً﴾ الفاءُ رابطةٌ لجواب الطَّلب، فهي لتمهيدِ مبادئ إجابةِ دعائِه ﷺ، وإعطاءِ مسؤولِه الَّذي لا يتسنَّى ذلكَ المرامُ إلّا به[5].

سِرُّ تنكيرِ ﴿أَفْـِٔدَةً﴾:

المقصودُ بعضُ الأفئدةِ

نُكِّرَتْ ﴿أَفْـِٔدَةً﴾ لتتناولَ أفئدةَ ناسٍ غير معلومين، مِن مختلف الأصقاع والأعراق، بلحاظ البَعضيّة وليس الكلّيّة[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/224.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380.

سِرُّ استعمالِ ﴿أَفْـِٔدَةً﴾:

القلوبُ المُشتاقةُ المُحِبَّةُ تُسرِعُ لأجلِهم

الأفئدةُ: جمع فؤاد، وهو القلبُ، أو وسطُ القلب، وإيثارُه على القُلوب؛ لكون مَقرِّ المحبّة وسطَها، وأيضًا يُشْعِر ذلك بتمام المَودّة، وكمالِ المحبّة[1]، بما يحملُه لفظُ الفُؤاد مِن معنى التّفَؤُّد؛ أي: التّوقّد، يُقال: فأدتُ اللّحمَ؛ أيْ: شَويتُه، ولَحْمٌ فئيد؛ أيْ: مشوي[2]، ومنه معنى الاحتراق شوقًا. أو المرادُ به هنا النَّفسُ والعقلُ. وأورد لفظَ ﴿أَفْـِٔدَةً﴾ في السِّياقِ لإرادةِ أن يكونَ مَسيرُ النّاسِ إليهم عن شوقٍ ومحبَّةٍ، حتَّى كأنَّ المُسرِعَ هو الفُؤادُ لا الجَسدُ[3]. وميلُ القلوب إلى المكان مع جفاف مائِه، وصعوبة أرضه، وارتفاعِ جباله الصّمّاء الّتي لا تُكسى بخُضرةٍ قط[4]، أمرٌ محطٌّ إعجازٍ، ومثارُ تأمُّلٍ لمَن يتدبّرُه.

فائِدةُ قيْدِ ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾:

إمّا أن تكونَ من بيانيَّةً، وإمّا أن تكونَ تبعيضيَّةً

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لبيانِ أنَّ تلكَ الأفئدةَ منَ النّاس، فتكونُ ﴿مِّنَ﴾ بيانيَّةً؛ أيْ: فاجعلْ أُناسًا يَقْصِدونَهم بحبّاتِ قلوبِهم[5]. ويمكنُ أن تكونَ ﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيض؛ أيْ: أفئدةً مِن أفئدةِ النّاس، فلو قال: أفئدةَ النّاسِ لازْدحمتْ عليهم فارسُ والرّوم[6]؛ إذِ الجمعُ المُضافُ إلى المُحلَّى باللّام يُفيد الاسْتغْراق[7].

بَلاغة الاستعارةِ التّصريحيّةِ ﴿تَهْوِىٓ﴾:

الأفئدةُ تُسرعُ في القصْدِ إليهم

هَوَى يَهْوي هويًّا: إذا سقطَ مِن عُلْوٍ إلى سُفْل[8]، وأُطلِق هنا على الإسراعِ في المشي اسْتعارةً تصريحيَّةً[9]؛ إذ شُبّه الإسراعُ بالهويّ،

(1) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/86.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فأد)، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/225.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4039.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(7) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/86.
(8) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3813، والجوهريّ، الصّحاح: (هوى).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/242.

بجامع الاندفاع بقوَّة في كلٍّ، فالأفئدةُ تُسرعُ إليهم كأنَّها تسقطُ سقوطًا بانْحدارٍ ونزولٍ؛ لشدَّةِ إسراعِها[1]، ويرسّخ ذلك معنَى اللّفظِ المُستَنبَط مِن "هوتِ النّاقةُ: إذا أسرعتْ في سيرها إسراعًا شديدًا، كأنّها تُسابِق الرّيحَ"[2].

سِرُّ تعْدِيةِ ﴿تَهْوِىٓ﴾ بـ (إلى):

أفئدةُ المؤمنين تَهوي شوقًا إلى البيتِ العتيقِ

عُدِّيَ الفعلُ ﴿تَهْوِىٓ﴾ بـ (إلى)، وأصلُ تعديتِه باللّام؛ لِتضمُّنِه معنَى الشَّوقِ والنُّزوعِ والميلِ، فكأنَّ الأفئدةَ تطيرُ نحوَهم شوقًا ونِزاعًا[3]؛ فإنَّ الشَّيءَ كلَّما بَعُدَ مَدى مَرْماه اشْتدَّ وَقْعُه، وهَفَتِ القلوبُ إليه مُسرعةً[4].

دَلالةُ عطْفِ جملةِ: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

الدُّعاءُ بالدُّنيا بعد الدُّعاءِ بالدِّين

لَمّا دعا لهم إبراهيمُ ﷺ بالدِّين؛ بإقامةِ الصَّلاةِ وحجِّ البيت، دعا لهم بالرِّزق المُتضمِّنِ للدُّعاءِ لجيرانِهم، فقال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ على يدِ مَنْ يهوي إليهم، منَ الثَّمراتِ الَّتي أنبتَها اللّهُ في بلادهم.

معنَى حرفِ الجرِّ في: ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

القصدُ إيصالُ بعضِ الثّمراتِ

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بيانيَّةٌ، ويمكنُ أن تكونَ تبعيضيَّةً، وذلك يَدلُّ على أنَّ المطلوبَ بالدُّعاءِ إيصالُ بعضِ الثَّمراتِ إليهم[5].

دَلالةُ (ال) في ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

جبايةُ جميعِ الثَّمراتِ مِن جميعِ الأقطارِ

صُدِّرتِ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بـ (ال) الَّتي تُفيدُ جِنْسَ الثَّمراتِ كُلِّها بأنواعِها المختلفة، بأن يُجعلَ بقربِ منه قُرًى يحصُلُ فيها ذلك، أو يُجْبَى إليه منَ الأقطارِ الشّاسعةِ بالتِّجاراتِ وغيرِها، وقد حصلَ كلاهما، حتَّى إنَّه تجتمع فيه الفواكهُ الرَّبيعيَّةُ والصّيفيَّةُ في يومٍ واحدٍ[6].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/368، والخازن، لباب التّأويل: 3/83.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4039.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/270.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/427 - 428.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/105.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/105.

نُكتةُ عدمِ شرطِ الرّزقِ بالإيمانِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ إنّما لم يَخصّ إبراهيمُ ﷺ المؤمنينَ بالدّعاء، كما خصَّهم في قوله: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة: 126]؛ اكتفاءً بذِكْر إقامةِ الصّلاة[1].

اُكتُفِيَ بإقامةِ الصّلاةِ عن ذِكْرِ المؤمنين

دَلالةُ (لعلَّ) في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾؛ أيْ: ليكونَ حالُهم حالَ مَن يُرجَى شُكرُهم، لِما يَرَوْنَ من نِعَمِكَ الخارقةِ للعوائدِ، في ذلك الموضعِ البعيدِ عنِ الفضلِ لولا عنايتُكَ، فيشكرونَكَ ربَّنا بالفعلِ لا بمُجرَّدِ القولِ.

رجاءُ شُكْرِهم بتوحيدِ اللهِ واستمرارِهم عليه

وَجْهُ التّعبيرِ بالشُّكرِ في: ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾:

الشُّكْرُ: امتلاءُ النّفس بالإحساس بالنّعمة، واندفاعُها إلى الطّاعة والخضوعِ، والقيامُ بحَقّ المُنعِم، ومقابلةُ الفضلِ والنّعمةِ بالإحسان في الطّاعة والواجباتِ، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: 7]، فالشُّكرُ يكون على النّعمةِ، وبالمثابرة على الطّاعة والعبادةِ[2]. وعليه يكونُ الشُّكرُ: تعظيمَ المُنعِم بصرف نِعمتِه إلى ما يُرضيه[3].

الشُّكْرُ مقابلةُ النِّعمةِ بالإحسان، وتعظيمُ المُنعِم بصَرف نِعْمَتِه إلى ما يُرضيه

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾:

أفادت صيغةُ المضارع ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ أنَّهم يشتغلون بعبادتِك، مُداومين عليها مُستمرِّينَ في شكرِهم لكَ؛ لإغنائكَ لهم وإحسانِكَ إليهم، وديمومةِ نِعَمكَ عليهم في دينهم ودنياهم، وللإيماء إلى جدارة الشّكر بالتّجديد. وفيه تذكيرٌ لقريشٍ بهذه النِّعم عليهم ببركةِ أبيهمُ الأعظم إبراهيمَ ﷺ، الّذي نهى عن عبادةِ الأوثان، وحقيقةُ الشُّكرِ قائمةٌ على التَّوحيدِ الخالصِ للّهِ وحدَه لا شريكَ له[4].

بالشُّكرِ تدومُ النِّعَمُ، ويُستَدامُ الكَرَمُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/226.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/56.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/148.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/490، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/428.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّرّيّةُ، والأهلُ، والأولادُ:

الـذُّرّيّـةُ والـولـدُ يَـشـتـركـان في النَّجْلِ والنَّسْلِ، والأهـــلُ أعـمُّ منهما

ذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: ولَدُه ونَسْلُه، والجمعُ: الذَّراري والذُّرِّيّات. والأهلُ يكون مِن جهةِ النَّسب والاختصاص، فمِن جهةِ النَّسبِ قولُك: أهلُ الرَّجلِ لقرابته الأدْنَيْن، ومن جهةِ الاختصاصِ قولُك: أهلُ البَصْرةِ وأهلُ العلم[1]. فالأهلُ أوسعُ دَلالةً منَ الذُّرِّيَّة، فأهلُ الرَّجل: مَن يَجْمَعُه وإيّاهم مَسْكَنٌ واحد، ثمَّ سُمِّي به مَنْ يَجْمَعُه وإيّاهم نَسَبٌ أو دِينٌ أو صَنعةٌ أو نحوُ ذلك. ويُطلَقُ (الأهلُ) كذلك على زوجةِ الرَّجلِ خاصَّة؛ لأنَّها المرادُ في عُرفِ اللِّسان[2]. والأولادُ: جمعُ وَلَد، والوَلَدُ: دليلُ النَّجْلِ والنَّسْل، ثمَّ يُقاسُ عليه غيرُه، مِن ذلكَ (الوَلَد)، وهو للواحدِ والجميع، ويُقالُ للواحدِ: وُلْدٌ أيضًا، والوَليدةُ: الأُنْثى، والجمعُ: وَلائد، وتولَّدَ الشَّيْءُ عنِ الشَّيْءِ: حصلَ عنه[3]. واختِيرَ لفظُ الذّرّيّة في الآية؛ لأنّ مقصودَ النّبيّ ابراهيمَ ﷺ: ولدُه، ونسلُه.

الوادي والأرضُ:

الـــوادي جُـــزءٌ مـنَ الأرضِ بين جَبَلَيْن

الوادي: الموضعُ الَّذي يسيلُ فيه الماءُ، والمَفْرَج بينَ الجبالِ والتِّلالِ والآكام، وجمعُه: أوْدية. والأرضُ: الجِرْمُ المُقابلُ للسَّماء، وجمعُه: أرَضون، ولم تجئ مجموعةً في القرآن، ويُعبَّرُ بها عن أسفلِ الشَّيء، كما يعبَّرُ بالسَّماءِ عن أعلاه[4]. ويُقالُ: أرضٌ أريضةٌ؛ أيْ: حَسَنةُ النَّباتِ[5]. ولأنّ مكّة كانت في أرضٍ منخفضةٍ واقعةً بينَ الجبال؛ اختِيرَ ما يناسبُها، مِن لفظٍ دالٍّ على الخصوص، وهو الوادي، دونَ اللّفظ الدّالِّ على العموم، وهو لفظُ (الأرض).

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ذرّ).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 84، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 210.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، اللّسان: (ولد).
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (أرض).
(5) الخليل، العين: 7/55، وابن فارس، المجمل: 2/92.

الحَرامُ والمُحَرَّم:

الحرامُ: المَنعُ والتَّشديدُ، وهو ضِدُّ الحلال، قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157]، وهو صفةٌ مُشَبَّهةٌ تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام. والمُحَرَّمُ: اسمُ مفعولٍ يدلُّ على مجرَّدِ الحدوث لِما هو مُحَرَّمٌ، مِن اسْتحلالِ حُرُماتِ اللّهِ والاسْتهانةِ بها، كما قال تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، فيَدُلُّ على أنَّ الحُرمةَ مُتَجدِّدَةٌ فيه بتَجَدُّدِ الفعل، وصيغتُه تُفيدُ الصَّيرورةَ؛ أي: اللّهُ تعالى صيَّرَه حرامًا[1]. ومِن هنا فهي أنسبُ لسياقِ الآيةِ بما تحملُه مِن دلالة دوامِ الحُرْمةِ.

الحَرامُ صفةٌ مُشَبَّهةٌ تُفيدُ الثُّبوتَ، والمُحَرَّمُ اسمُ مفعولٍ يدلُّ على التَّجدُّدِ

الأفئدةُ والقلوبُ:

لم يُفَرِّقْ بعضُ أهلِ اللُّغةِ بينَهما؛ بل عرَّفوا كُلًّا منهما بالآخر، إذ قالوا: إنَّ الفؤادَ كالقلب، لكنَّ بعضَهم أضافَ فقال: يُقال للقلبِ فؤادٌ إذا اعْتُبِرَ فيه معنَى التَّفؤُّدِ؛ أي: التَّوقُّدِ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أيْ: قلوبًا متوقِّدةً بالشَّوق، ذلك أنَّ الفؤادَ منَ الفعلِ (فَأَدَ)، وهو يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[2]، فالأفئدةُ توصَفُ بالرِّقَّة، والقلوبُ باللِّين؛ لأنَّ الفؤادَ غِشاءُ القلب، إذا رَقَّ نفَذَ القولُ فيه وخلُصَ إلى ما وراءَه وعلِقَ به، وإذا غَلُظَ تعذَّر وصولُه إلى داخلِه، كما قال تعالى عنِ الكافرين: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179][3]. ولمّا كان الشّوقُ إلى بيت اللّه الحرام مُتّقِدًا في نفوس المسلمين في كلّ حين، ويتحرّقون شوقًا لها، ناسب اصطفاءُ لفظِ ﴿أَفْـِٔدَةً﴾.

الأفئدةُ هي القلوبُ المتَّقِدَةُ بالحُبِّ والشَّوقِ

الهوِيّ، والميلُ، والإسْراعُ:

الهوِيُّ: السُّقوط، يُقالُ: هَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي هوِيًّا: إذا سقطَ

الهوِيُّ سقوطٌ مع الإسراعِ الشَّديدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (حرم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فأد).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 433، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 189، ولامنس، الفرائد، ص: 263.

مِن عُلْوٍ إلى سُفْل، كما قالَ تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحجّ: 31]. وفي (الهويِّ) معنَى الانْحدارِ والنُّزولِ مع الإسراعِ الشَّديدِ(1).

والمَيْلُ: مصدرٌ من: مالَ يَميلُ مَيْلًا، ويُستعمَلُ فيما يُرى وفيما لا يُرى، مثل أن يُقالُ: مالَ فلانٌ، ومالَ الحائطُ مَيْلًا، والمَيْلُ يكونُ في جانبٍ واحد، يُقال: مالَ عنِ الحقِّ، ومالَ عليه في الظُّلم(2).

والسُّرعةُ: ضِدُّ البُطء، ويُستعمَلُ في الأجسامِ والأفعال، يُقالُ: سَرُعَ، فهو سريعٌ، وأسْرعَ فهو مُسْرِعٌ، وأسْرَعوا: صارتْ إبِلُهُمْ سِراعًا، قالَ تعالى: ﴿*وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 133]، وقالَ ﷻ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: 43](3).

ولمّا كان لفظُ (الهويّ) إسراعًا بجامع الاندفاع بقوَّة، فالأفئدةُ تُسرعُ إليهم كأنَّها تسقطُ سقوطًا بانْحدارٍ ونزولٍ لشِدَّةِ إسراعِها، وهذا المعنى يناسبُ دلالةَ لفظِ (الهويّ).

الشُّكرُ والحَمْدُ:

مآلُ الشُّكرِ الزِّيادةُ، وهو تعظيمُ المُنعِمِ بتَحرّي مواضعِ الرِّضا المصروفةِ عن نِعمِه

بين الشُّكرِ والحمدِ اختلافٌ وتلاقٍ في معنى الإحساس بالنّعمة والقيامِ بحقّها، وما يجب بالنّسبة للمُنعِم، ولكنّهما يختلفان في القيام بحَقّ المُنعِم، فالقيامُ بحَقّ المُنعِم في الشّكر بالطّاعة والعملِ، وجعلِ الجوارحِ كلِّها في طاعة اللّه تعالى، والخضوعِ المُطلق للّه تعالى في كلّ شأن من شؤونه، وحالٍ من أحواله.

والقيامُ بحقّ المُنعِم في الحَمْد بالثّناء على اللّه تعالى ثناءً مطلقًا كاملًا، مع تَذَكّر نَعمائِه، وتَذَكّرِ ما يحيطه منَ الوجود كلِّه. والحمدُ ذاتُه عبادةٌ.

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/78، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3813.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 269، 526.
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرع).

فالشّكرُ يكون على النّعمةِ وبالمُثابرة على الطّاعة والعبادةِ[1]، فهو تعظيمُ المُنعِم بصرف نعمتِه إلى ما يرضيه[2]، ولمّا كان مآلُ الشُّكر الزّيادةَ، وتعظيمَ المُنعِم بتحرّي مواضع الرّضا المصروفة عن نِعمه، كان حَرِيًّا بأفعال الأنبياء وذراريهم تمثّلُه قولًا وفعلا، والدّوامُ عليه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/56.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/148.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 25 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-22-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 25 : المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-22-7
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-3019282 بتاريخ 2024/02/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»